

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القصص

سورة مكية، نزلت لتقرر أن القوة الوحيدة في الوجود هي قوة الله، وأن القيمة الوحيدة في هذا الكون هي قيمة الإيمان، وهي تبدأ بقوله تعالى:

﴿طَسَمَ (١) تَلَكَّ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢)﴾

أي: هذه آيات من هذا الكتاب المبين، وهو القرآن.

﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣)﴾

يعني: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ﴾ فيها، بعضًا ﴿مِنْ نَبَأِ﴾ خبر ﴿مُوسَى وَفِرْعَوْنَ﴾ ﴿بِ﴾ الوجه ﴿الْحَقِّ﴾ الذي لا تحريف فيه، ولا شك حوله ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ويصدقون، فيتفهمون. ذلك..

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذِخُّ أُنْبَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)﴾

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ هذا، قد ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ التي يحكمها، وهي أرض مصر، وتجبر وطغي، ونسي العبودية، وادعى الألوهية.

﴿و﴾ كذلك ﴿جَعَلَ أَهْلَهَا﴾ أي: أهل هذه الأرض ﴿شِيَعًا﴾ فرقًا وطوائف ممزقين، وليسوا يدًا واحدة؛ ليسهل له الطغيان فيهم، وكان ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ

مِّنْهُمْ ﴿٥﴾ فيذلهم، ويسخرهم في خدمته، و ﴿يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ﴾ فقط لخدمته.

وباختصار: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون. هذه هي قصة فرعون في كلمات معدودات، ولكن أين كانت عناية الله بخلقه؛ لتتقدم من هذا الطاغية؟ يقول الله تعالى:

﴿وَرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾

يعني: ﴿وَرِيدُ﴾ بعنايتنا ورعايتنا هذه الأشياء:
 أولاً: ﴿أَنْ تَمَنَّ﴾ نتفضل ﴿عَلَى الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا فِي الْأَرْضِ﴾ وهي أرض مصر، من بني إسرائيل، الذين كانوا فيها من أيام يوسف عليه السلام، وكانوا خير أهل الأرض وقتها، أي: نتفضل عليهم بإنقاذنا لهم من ظلم فرعون.
 ثانياً: ﴿وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً﴾ قادة في الخير، يدعون الناس إليه.
 ثالثاً: ﴿وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ لغيرهم في الملك والسلطان من أهل زمانهم.
 رابعاً: ﴿وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فنجعل لهم عليها سلطاناً وحكماً.
 خامساً: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ أي: هؤلاء الظلمة ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ منه ويخافونه، من قوتهم وانتقامهم منهم.

هذا، وقد تحقق كل ما أراده الله، وإليك التفاصيل من أولها، يقول الله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَلَّمْنَاهُ فِي اللَّيْلِ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾

إذا، الإنقاذ سيكون - بعناية الله - على يد موسى عليه السلام الذي تبدأ قصته مع فرعون بهذه الآية، وهذه الآية في غاية الإبداع والإعجاز، ففيها كما يقول العلماء:

أولاً: خبران وهما: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ و ﴿فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ﴾.

ثانيًا: أمران وهما: ﴿أَرْضِعِيْهُ﴾ و ﴿فَأَلْقِيْهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي: الماء.
 ثالثًا: نهيان وهما: ﴿لَا تَخَافِي﴾ و ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾.
 رابعًا: بشارتان وهما: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ﴾ أي: سنعيده إليك، ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: سنجعله نبيًا رسولًا.

وفهمت أم موسى الخبرين ونفذت الأمرين، وامثلت للنهيين، وفرحت بالبشارتين، وألقي موسى طفلًا رضيعًا في الماء، وكانت تحرسه عناية الله.

﴿فَالْقَظَّةُ: ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (٨)

أي: ﴿فَالْقَظَّةُ: ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ من الماء، واستخرجوه، وذهبوا به إلى فرعون وكان ذلك ﴿لِيَكُونَ﴾ أمر الله نافذًا، ونجعله ﴿لَهُمْ عَدُوًّا﴾ يعاديهم ﴿وَحَزَنًا﴾ يحزنهم.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ في كفرهم، وطغيانهم، واستعلائهم، وسوء فهمهم لعناية الله وقدرته.

وهكذا، دخل الرضيع إلى قصر فرعون؛ ليكتب سطور نهاية الظلم.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩)

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ لفرعون، لما رأت الطفل الرضيع: هذا ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾ إذ ليس لنا أولاد، ثم قالت: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ كما تقتلون الذكور كل لحظة ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ حينما يكبر ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ ونبناه.

واستجاب فرعون لها فلم يقتلوه، وبقي في القصر ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جميعًا، بما يدبره الله لهم لا هي تشعر أنه سيكون سبب إيمانها وهدايتها، ولا هم يشعرون أنه سيكون سبب هلاكهم.

هذا عن الطفل الرضيع الذي ألقته أمه بأمر الله في الماء، فماذا عن أمه؟ يقول تعالى:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَيٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾

يعني: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ﴾ قلب ﴿أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا﴾ من كل شيء، بسبب القلق على وليدها ﴿إِن كَادَتْ﴾ أي: قاربت ﴿لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ أي: تخبر بقلقها عليه، وبخاصة لما وقع في يد آل فرعون، وأدخل إلى قصره أيضًا ﴿لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَيٰ قَلْبِهَا﴾ بالثبات والصبر ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين برعاية الله وحفظه. ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ﴾ من فرط حبها له ﴿قُصِّيهِ﴾ تتبعي خبره واستجابت ابنتها وبدأت في معرفة الأخبار.

﴿فَبَصُرَتْ بِهِ﴾ أي: رآته وهو في أيديهم ﴿عَنْ جُنُبٍ﴾ عن بعد ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بها، ولا يعرفون أنها أخته، فاطمأنت بعض الشيء، واقتربت منهم يقول الله تعالى:

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ كنا قد ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ ومنعناه الرضاعة ﴿مِن قَبْلُ﴾ أن تراه أخته، وكان أهل القصر في نكد شديد؛ لعدم رضاعته من أي مرضعة يحضرونها له. ﴿فَقَالَتْ﴾ أخته لهم في هذا الجو القلق عن الرضيع: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ إرضاعًا ورعاية ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ أي: مخلصون في رعايته وإرضاعه.

وأجابوها إلى ما قالت؛ حرصًا على حياة الرضيع، وعادت بالطفل إلى البيت.

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

وهكذا، لما وعدنا ربنا بقوله: ﴿إِنَّا رَأَوْهُ إِلَيْنِ﴾ [القصص: ٧] رده إليها، وبسرعة، ووعد الله حق دائماً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك، فلا يصبرون. أو فلا يؤمنون..!!
وعاش الطفل موسى بعناية الله، تحت سمع وبصر أمه، وعلى نفقة فرعون.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤)
أي: ﴿وَلَمَّا﴾ كبر موسى، و ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ يعني كمال قوته البدنية والعقلية
﴿ءَاتَيْنَاهُ﴾ من عندنا ﴿حُكْمًا﴾ أي: حكمة ﴿وَعِلْمًا﴾ أي: دراية بمصالح الدنيا والآخرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ يعني كما فعلنا بموسى وأمه ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ المؤمنين.
ثم يقول تعالى عن موسى:

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَتْهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٥)

يعني: لما آتاه الله الحكمة والعلم، خرج موسى من قصر فرعون، وعاش بعيداً، وصار يدعو إلى الله، وعرف الناس عنه ذلك، وصار له شيعه وأتباع.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ ذات يوم ﴿عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ﴾ واستراحة ﴿مِّنْ أَهْلِهَا﴾
﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ فيما بينهما: ﴿هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾
﴿فَاسْتَغْنَتْهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ﴾ وطلب منه النصرة ﴿عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾.

ولبى استغاثته ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾ أي: ضربه بكل قوته ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ ومات.
وهنا ﴿قَالَ﴾ موسى لنفسه ﴿هَٰذَا﴾ الذي فعلته عمل ﴿مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾
الذي دفعني إليه، وأثار غضبي عليه ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الشيطان ﴿عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

وبعد أن اعترف بخطئه ندم على فعله، وتاب إلى الله.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦)
قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ (١٧)

وغفر له ربه ذنبه الذي تاب منه، ولم يُصر عليه، حيث ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ الْعَفُورُ﴾ لذنوب عباده المؤمنين ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم، فلا يعذبهم بعد توبتهم ثم عاهد ربه على أن لا يعود لمثلها.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بالمغفرة ﴿فَلَنْ أَكُونُ﴾ يوماً ما ﴿ظَاهِيراً﴾ نصيراً ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين بك، أو المخالفين لأمرك.

ومع ذلك لم يهدأ لموسى بال وهو في المدينة، بعد هذه الحادثة، يقول الله تعالى:

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١٨) ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَنَّكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١٩)

أي: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ موسى وهو ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً﴾ على نفسه من أهلها؛ بسبب قتل هذا القبطي ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ الأذى منهم، وبينما هو كذلك، ﴿فَإِذَا﴾ بالرجل ﴿الَّذِي﴾ استغاث به، و ﴿اَسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ﴾ وهو إسرائيلي من شيعته ﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾ من ظلم قبطي آخر، وهنا جاء موسى و﴿قَالَ لَهُ﴾ أي: للإسرائيلي: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ كثير الشر، كثير المعارك، ولم يتمالك موسى نفسه أمام هذا الظلم، وأراد أن يضرب هذا الظالم القبطي.

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ﴾ يضرب ﴿بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ وهو القبطي، ظن الإسرائيلي أن موسى سيضربه هو، لذلك أخذ بالظن و ﴿قَالَ يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَنَّكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ ولا يعرف ذلك سوانا ثم تنكر للفضل، وقال: يا موسى ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ تضرب وتقتل، ولا تفكر في العواقب ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾

ولكن ليس كل المؤمنين على هذا السوء من الأخلاق، ولا بهذه السلبية، التي رضيت بالذل والهوان، حيث إن هناك غير هذا، يقول الله تعالى:

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَىٰ ابْنَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (٢٠)

في هذه الآية تنتهى الإيجابية المطلوبة من المؤمن.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ ينكر ذاته، ويدافع من نفسه المؤمنة بالخير ﴿مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾
لم يقل: الأمر لا يعني، المنكر ليس في جهتي، ولا قريباً مني.

﴿يَسْعَى﴾ بجدية ليغير المنكر، ولا يهتم التعب، ولا المعاناة من أجل ذلك.

﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ مكاشفة بالخطر، ووضوح
في التعبير عنه.

﴿فَأَخْرَجَ﴾ قدم البديل، وأشار إلى المخرج.

﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ أنصحك ولا ألزمك، أشير عليك ولا أكرهك.

وسمع موسى النصيحة ونفذها.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

وخرج موسى من مصر، ونجاه الله من القوم الظالمين بها، وتوجه إلى بلاد مدين
بالشام، وهي خارج سلطان فرعون.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ﴾ إلى بلاد ﴿مَدْيَنَ﴾، استعان بالله قبل كل شيء، حيث قال:
﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

ووصل إلى بلاد مدين.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ
دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَفَىٰ حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ
وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا
أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ﴿٢٤﴾

يعني: ﴿وَلَمَّا﴾ وصل موسى إلى مدين، وذهب إلى مكان الماء فيها ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ
أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: جماعات كثيرة منهم ﴿يَسْقُونَ﴾ دوابهم.

﴿وَهُنَاكَ وَجَدَمِنْ دُونِهِمْ﴾ أي: بعيدًا عنهم بعض الشيء ﴿أَمْرَاتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تدفعان وتسوقان غنمهما، ولا تسقيان، فسألهما ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: لم تقفان بعيدًا ولا تسقيان، كما يسقي الناس.

﴿قَالَتَا﴾ له: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ حتى ينتهي الرعاة من سقيهم، ويعودون راجعين، ثم نسقي بعدهم؛ حيث ﴿أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لا يستطيع أن يسقي هو، ولذلك نسقي نحن عنه، فتأثر لضعفهما، ولظلم الناس لهما، وهو الذي فر من الظلم.

﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ أغنامهما؛ رغبة في المعروف، وإغاثة للملهوف.

﴿ثُمَّ تَوَلَّى﴾ وعاد ﴿إِلَى الظِّلِّ﴾ ليستريح فيه من حر الشمس، وناجى ربه ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

وعادت البنتان إلى أبيهما، وأخبرته خبر هذا الرجل الذي سقى لهما قبل موعهما فطلب من إحدى ابنتيه أن تستدعيه لأبيها، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥)

ولمَّا استمع الجميع إلى قصته، وعرفوا حكايته.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَتَّابِتْ اسْتَعْرِجُهُ﴾ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَعَجَرَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾

أي: استأجره لنا، يرعى أغنامنا، ويدير شؤوننا ثم بينت مؤهلاته لهذه الوظيفة في العبارة التالية ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَعَجَرَ الْقَوِيُّ﴾ في العقل والبنية ﴿الْأَمِينُ﴾ على الأعراس والحرقات.

ولكن كيف يستأجره، ويقيم معهم؟ إنها ليست مشكلة ما دام هناك لها حل..

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَاجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ هذا الشيخ الكبير لموسى ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ أزوجه ﴿إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾.

﴿عَلَى﴾ أن يكون المهر: ﴿أَنْ تَأْجُرَنِي﴾ وتعمل عندي ﴿ثَمَنِي حَجَاجٍ﴾ ثمان سنوات ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ﴾ هذه المدة ﴿عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ هذه الزيادة فضلاً ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ إن كنت لا ترغب في هذه الزيادة، واطمئن يا موسى ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ في المعاملة، ولن أكلفك فوق طاقتك إذا قبلت.

وقبل موسى، ثم اشترط موسى لنفسه شرطاً؛ حيث ﴿قَالَ﴾ له موسى: وافقت على الزواج، وذلك الصداق وعد بيني وبينك ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ﴾ ثمانية أو عشرة من السنين ﴿قَضَيْتُ﴾ معك ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ في الموعد الآخر، بطلب الإقامة فيه ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

وعاش موسى ﷺ مع هذه الأسرة الطيبة الكريمة مدة من الزمن حتى انقضى الموعد المتفق عليه بين موسى وهذا الشيخ الكبير، وأراد موسى أن يعود إلى أهله ومسقط رأسه مصر، فماذا حدث؟ يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

يعني: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى﴾ المدة المتفق عليها، وأراد العودة إلى مصر، أخذ زوجته معه، وخرج من بلاد مدين ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾.

وهو في طريق العودة هذه ضلَّ الطريق في ليلة باردة، ولكنه ﴿ءَأْنَسَ﴾ رأى ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ تضيء، وهنا ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ﴾ زوجته ﴿أَمْكُثُوا﴾ انتظروا ﴿إِنِّي ءَأَنْسْتُ نَارًا﴾ بعيدة، سأذهب إليها ﴿لَعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِنْهَا﴾ أي: من أهلها ﴿بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ شعلة ﴿مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون بها.

وبقيت امرأته حيث أمرها، وذهب موسى إلى النار..

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمْوِسَّ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾
﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ موسى، سمع نداءً، ممن يخاطبه ويكلمه ويقول له:
﴿يَمْوِسَّ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وعلى الفور، سمع التكليف التالي:

﴿وَأَن أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسَّ أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾
﴿٣١﴾

ونفذ موسى الأمر، وألقى عصاه، فصارت حية تسعى ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا﴾ موسى ﴿تَهْتَزُّ﴾ تتحرك وتتلوى ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ حية، فزع فرعاً شديداً، وهنا ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ رجع للخلف مسرعاً ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: ولم يعد، أو يلتفت فسمع ربه يقول له:
﴿يَمْوِسَّ أَقْبَلْ﴾ تعال ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ منها أو من غيرها ﴿إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾ لأنك في حمايتي، وتحت رعايتي، وعاد ونظر إليها دون خوف.

وكان الأمر الثاني: يا موسى..

﴿أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذُنُوبُكَ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾
﴿٣٢﴾

يعني: أدخل يدك في فتحة قميصك ﴿تَخْرُجْ﴾ منه ﴿بَيْضَاءَ﴾ اللون، يتلأأ منها نور كنور القمر ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي: من غير مرض بها.

﴿وَأَضْمَمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ وضم يدك إلى صدرك، يذهب عنك ما بك ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ أي: الخوف.

ثم قال له ربه تعالى: ﴿فَذَلِكُ﴾ العصا واليد ﴿بُرْهَانَانِ﴾ دليلان ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ على وحدانيته وقدرته، اذهب بهما ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ وادعهما لتوحيدي وعبادتي، وطاعتي؛ حيث ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ مخالفين لأوامر الله وشرعه. وأدرك موسى خطورة الموقف، لذلك..

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (٣٣)

يعني: فإذا قتلوني لا أستطيع تبليغ رسالتك.

كما أحس ﷺ بثقل المهمة، فطلب المعونة قائلاً:

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (٣٤)

أي: ﴿و﴾ أنت تعلم يا رب أن ﴿أَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وأقدر مني بياناً ﴿فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي: معيناً ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ ببيان المعنى عند ساعات النقاش والجدال؛ حيث ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ فلا يؤمنون.

وفي الحال، أجاب له ربه طلبه، وثبت من الخوف فؤاده..

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا أَنْتَ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ (٣٥)

أي: ﴿قَالَ﴾ له ربه: يا موسى ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ سنقوي أمرك ﴿بِأَخِيكَ﴾ هارون، ونجعله نبياً كما طلبت.

﴿و﴾ أيضاً ﴿نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ حجة قوية، وعناية إلهية ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بأذى، اذهبا إليهم ﴿بِأَيِّدِنَا﴾ دعوة إلى توحيد الله وعبادته ف ﴿أَنْتَ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ لهم بإذن الله.

وبعد أن تلقى هذا الوحي، عاد بأهله إلى مصر، وذهب إلى فرعون وقومه يدعوهم إلى الله.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٦)

يعني: دخل موسى ﷺ على فرعون وقومه ودعاهم إلى توحيد الله وطاعته، وعرض عليهم آيات الله الواضحة، وهي العصا واليد، ففوجئوا ولم يؤمنوا، بل ﴿قَالُوا﴾ أمرين: الأول: ﴿مَا هَذَا﴾ الذي معك من العصا واليد ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ﴾ أي: سحر كاذب، وليس بمعجزة من عند الله.

الثاني: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ الذي تدعونا إليه ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾، فمن أين جئت به؟ إنه من عندك أنت. فأجابهم..

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٣٧)

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ لهم: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ﴾ أنا أو أنتم!!

﴿و﴾ كذلك ربي أعلم ﴿مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أي: النهاية الحسنة، أنا أو أنتم!! ثم قال لهم: لا تكونوا من الظالمين؛ لتفلحوا وتفوزوا، حيث ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أبداً.

وهنا أصبح موقف موسى واضحاً، وصارت حجته بينة قوية، وأسقط في يد فرعون؛ حيث لا حجة معه ماذا يفعل..؟ يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣٨)

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لكبار قومه ورؤسائهم ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ﴾ أي: ليس لكم ﴿مَنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ كما يدعي موسى، وحتى يؤكد لهم كلامه، التفت إلى واحد من زبانيته وقال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَنْهَمُنُّ نَارًا﴾ ﴿عَلَى الْطِّينِ﴾ ليتحمل البناء العالي ﴿فَأَجْعَلْ لِي﴾ أي: فابن لي به ﴿صَرْحًا﴾ قصرًا عاليًا ﴿لَعَلِّي﴾ أصعد عليه، و ﴿أُطْلِعَ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى﴾ هذا الذي يدعونا إلى الإيمان به. ﴿وَأِنِّي لَا أَظُنُّهُ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ في دعواه.

ولم بين هامان الصرح، ولم يصعد فرعون ليطلع إلى إله موسى..!!

﴿وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْحَقَّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ (٣٩)

يعني: ﴿و﴾ مع ذلك ﴿أَسْتَكْبَرُ﴾ فرعون ﴿وَجُنُودُهُ﴾ على الله، فلم يؤمنوا وطمعوا على الناس ﴿فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْحَقَّ﴾ أي: ظلمًا وعدوانًا. ﴿و﴾ ما ذلك إلا لعدم تصديقهم باليوم الآخر؛ حيث ﴿ظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت، وسنحاسبهم.

وعاث فرعون في الأرض فسادًا، واستمر على كفره، ولم يؤمن بالله عنادًا..

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠) ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ (٤١) ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ (٤٢)

يخبر تعالى أنه أنزل بفرعون وجنوده، خمس عقوبات:

الأولى: في الدنيا، وهي: الإهلاك ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ فأغرقناهم بقدرتنا ﴿فِي الْيَمِّ﴾ وهو البحر، في لحظة واحدة. ﴿فَانْظُرْ﴾ واعتبر يا كل ظالم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾

السيئة..!!

الثانية: في الآخرة، حيث جعلهم قادة إلى النار، كما كانوا في الدنيا قادة للكفر والشر ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْفُرُونَ﴾ الطغاة ويرشدونهم ﴿إِلَى﴾ طريق ﴿الْكَارِ﴾ ودخلوها.

الثالثة: في الآخرة، وهي: خذلانهم وعدم نصرتهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصُرُونَ﴾ من العذاب، حين يطلبون الهروب منه.

الرابعة: في الدنيا، وهي: لعنهم إلى يوم الدين ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: طردًا من رحمة الله، على السنة الأنبياء والمؤمنين.

الخامسة: في الآخرة، وهي: تقييح صورهم وأرواحهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أي: الفاسدين روحًا، المشوهين وجوهًا.

أبوجد بعد هذا العذاب عذاب..؟ لذلك يرشد المولى أهل زمان موسى عليه السلام إلى طريق النجاة من وقوع مثله بهم، وذلك عن طريق التمسك بما جاء به موسى، يقول ربنا جلت حكمته:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٣)

وكتاب موسى هو التوراة، وقد أعطاه الله لموسى حين بعثه بعد ما أهلك ﴿الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ وهي: قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، على هؤلاء الأنبياء السلام.

وكانت التوراة ﴿بَصَائِرَ﴾ أي: أنوارًا ﴿لِلنَّاسِ﴾ يبصرون بها الرشد والسعادة ﴿وَهُدًى﴾ لهم من الضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن تعبد بها لربه.

كل ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون.

هذا وبعد أن انتهت قصة موسى عليه السلام، يخاطب الله محمدًا ﷺ بما يُثبِت به للدنيا كلها نبوته ورسالته، حيث يقول ربنا تبارك وتعالى له:

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٤٤) ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (٤٥) ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ آلِ هَارُونَ إِذْ

نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحِمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

في هذه الآيات الكريمة دلائل على نبوة محمد ﷺ، حسب قوله تعالى له:
الدليل الأول: ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ﴾ الجبل ﴿الْعَرِيفِ﴾ الذي كان فيه
 ميقات موسى مع ربه ﴿إِذْ﴾ وقت أن ﴿قَضَيْنَا﴾ أوحينا ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾
 الْأَمْرَ ﴿بِالرَّسَالَةِ﴾!! ولكن أعطيناك العلم به.
الدليل الثاني: ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ الحاضرين هذا اللقاء الإلهي مع
 موسى..!! ولكن أعطيناك العلم به.

﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا﴾ أَوْجَدْنَا ﴿قُرُونًا﴾ أي: أُمَمًا ﴿فَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ﴾
 الْعُمُرُ ﴿وَبَعَدَ عَهْدَهُمْ﴾ عن هذه الرسالة، ووقع التحريف، فأرسلناك
 لتجديد الدعوة، وأعطيناك علم ذلك كله.. نعم، أرسلناك إليهم.
الدليل الثالث: ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ يا محمد ﴿ثَاوِيًا﴾ مقيمًا ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ حتى
 ﴿تَنَلُّوا عَلَيْهِمْ﴾ على أهل مكة ﴿ءَايَاتِنَا﴾ التي حدثت معهم
 ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ لك، فأعطيناك العلم به.

الدليل الرابع: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ في سيناء ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى، ليلة
 المناجاة!! ﴿وَلَكِنَّا﴾ أعطيناك العلم به ﴿رَحِمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾
 بالعباد. وذلك ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ﴾ يدعوهم إلى الله،
 ويخوفهم عقابه ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: في الفترة التي بينك وبين عيسى
 ﷺ؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

ويدخل في هذه الفترة كل أهل الكتاب، الذين حرفوا كتبهم، وغيروا فيها وبدلوا.
 عجيب الأمر؛ أن هؤلاء القوم الذين قُدمت الأدلة الدامغة لهم على نبوة محمد ﷺ
 وصدق رسالته، يخبر عنهم ربنا بقوله:

﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ
 إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٧﴾

يعني: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ﴾ عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ﴾ أو قلوبهم ﴿فَيَقُولُوا﴾ ساعتها ﴿رَبَّنَا لَوْلَا﴾ أي: هلاً ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ يدعونا إلى الإيمان بك وتوحيديك ﴿فَنَتَّبِعَ﴾ بعد دعوته لنا ﴿ءَايَتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بك، أي: حتى لا يقولون ذلك، ويتعللون لكفرهم، أرسلناك إليهم وإلى الدنيا كلها بالحق بشيراً ونذيراً.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ (٤٨)

أي: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ وهو القرآن المعجز مع رسولنا، ﴿قَالُوا﴾ عناداً ﴿لَوْلَا أُوتِيَ﴾ من الآيات الحسية ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ كالعصى، واليد، وغير ذلك؟ حقاً إنه تنطع منهم وعناد، ومع ذلك يرد الله عليهم، قائلاً:

أولاً: ﴿أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ من الآيات ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ القرآن..؟ حيث ﴿قَالُوا﴾ في موسى وهارون ﴿سِحْرَانِ﴾ أي: ساحران ﴿تَظَاهَرَا﴾ تعاونا مع بعضهما البعض.

﴿وَقَالُوا﴾ أيضاً ﴿إِنَّا بِكُلِّ﴾ أي: يكلّ واحد منهما ﴿كَافِرُونَ﴾.

ثم يرد المولى عليهم ثانياً بقوله للحبيب ﷺ:

﴿قُلْ فَاتَّبِعُوا بِكُتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا اتَّبِعْهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٩)

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ما دتم قد كفرتم بالتوراة وبالقرآن: ﴿فَاتَّبِعُوا﴾ أنتم ﴿بِكُتَابٍ﴾ غيرهما ﴿مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يكون ﴿هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ وأنا ﴿اتَّبِعْهُ﴾ لأنني لا أستكبر عن اتباع الهدى من الله، هيّا افعلوا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في رغبتكم الوصول للحقيقة.

وبالطبع لن يأتوا بذلك، ولن يستطيعوا، بل لن يستجيبوا لهذا العرض، لذلك يقول القوي القاهر:

﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ
يَغْيِرُ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٠﴾

يعني: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ فيما عرضته عليهم يا محمد، ولن يستجيبوا
﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ بلا دليل ولا حجة.

وعلى ذلك، فهم ضالون عن الحق والصواب، وحقاً ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ
يَغْيِرُ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾؟ لا أحد مطلقاً، حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ بهداه
﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

ومع أنهم عاندوا، وكفروا.. ومع أنهم لم يستجيبوا لك في أن يأتوا بكتاب من عند الله
أهدى من التوراة والإنجيل..!! فإننا لم نهمل بلاغهم..

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥١﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ﴾ أنزلنا لهم القرآن موصولاً بعضه ببعض، الوعد بالوعيد، والترغيب
بالترهيب، متتابعاً في النزول، حسب الحوادث والنوازل كل ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾
فيتعظون فيؤمنون.

استمعنا فيما سبق إلى الآيات الكريمة التي يثبت الله بها نبوة محمد ﷺ، فلنستمع
الآن إلى ما يؤكد ذلك مرة أخرى، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنْزَلُ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا
بِهِ ءِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٥٣﴾

أي: أن ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ التوراة والإنجيل ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: القرآن
﴿هُم بِهِ﴾ أي: بمحمد ﷺ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم يعترفون بنبوته..!!

وأما أنتم، فليس معكم كتاب، ومع ذلك لا تؤمنون..!!

﴿و﴾ هؤلاء أيضاً كانوا ﴿إِذَا يُنْزَلُ عَلَيْهِمُ﴾ القرآن ﴿قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ﴾ بعد نزوله
على محمد ﷺ؛ حيث ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾. ثم قالوا ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي:

من قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ له، مؤمنين؛ لَمَّا وجدنا من البشارة بمحمد في كتب الأنبياء السابقين.

وبعد أن بين الله أن إيمانهم مرتين: مرة بالكتب السابقة، ومرة بالقرآن الكريم، أخبر أنهم يكافؤون مرتين كذلك، فقال تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ لَا بِنَبِيِّ أَجْهَلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

يعني: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بهذا الوصف ﴿يُؤْتَوْنَ﴾ من الله تعالى ﴿أَجْرَهُم﴾ على إيمانهم هذا ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾، وذلك ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: بصبرهم على الطاعة، حينما آمنوا بكتابهم الأول واتبعوه، ثم على إيمانهم بالقرآن واتباعهم له، وبعد أن وصفهم ربنا عز وجل بالصبر، أضاف إلى هذه الصفة أيضًا صفة أخرى وهي:

أنهم ﴿يَدْرَءُونَ﴾ يدفعون ﴿بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: المعصية بالطاعة.

وصفة ثالثة وهي: أنهم ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: ينفقون على خلق الله من

الرزق الحلال.

وصفة رابعة وهي: أنهم يبعدون أنفسهم عن اللغو ومجالسه ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾

من القول ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ وابتعدوا.

﴿وَقَالُوا﴾ لأصحابه: أنتم في واد، ونحن في واد آخر ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾.

ثم فارقوهم وقالوا: ﴿سَلَّمْ عَلَيْكُمْ﴾ نحن ﴿لَا بِنَبِيِّ﴾ مخالطة ﴿أَجْهَلِينَ﴾ بشرع الله، المبتعدين عن الإلتزام بتعاليمه.

وهكذا، اتضحت وثبتت نبوة محمد ﷺ، بما لا يدع مجالاً للشك، ولكن ماذا تفعل

مع الطبيعة الجاحدة، والقلوب المغلقة المعاندة؟ ولذلك يقول ربنا لحبيبه وحينئذ ﷺ:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦)
 أي: لا تحزن يا محمد لعدم إيمانهم بعد هذا كله؛ حيث ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي﴾ بنفسك
 ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ له الهداية إذ عليك البلاغ فقط ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ جل جلاله
 ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته إلى الحق.
 ﴿وَهُوَ﴾ عز وجل ﴿أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: بالمستحقين للهداية؛ فيهديهم.

ثم يناقش أعذارهم الواهية في عدم إيمانهم، فيقول جل وعلا:

﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعِ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا
 يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧)
 يعني: قال هؤلاء الكافرون لمحمد ﷺ؛ لتبرير عدم إيمانهم به، وعدم اتباعهم له:
 ﴿إِن نَّبِيعِ الْهُدَى مَعَكَ﴾ ونخالف الناس من حولنا ﴿نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ يعني
 يعادوننا ويحاربوننا.

والعجيب: أنها نفس حجة مَنْ لا يطبقون شرع الله في هذا الزمان!! وكأن الناس من
 حولهم لا يعادونهم ولا يحاربونهم، حتى مع عدم تطبيقهم لشرع الله!! المهم، يرد الله
 عليهم هذا التبرير الكاذب بقوله جلت حكمته: ﴿أَوْلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبِّي
 إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ وهم كفار؟ أفلا نفعل لهم ذلك وهم مؤمنون؟
 بل نفعل.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنا قادرون على ذلك، وإذا علموا: لا يسلمون بذلك
 عنادًا، ومن هنا: فهم لا يؤمنون.

ولأن موقفهم هذا هو عين الظلم، فإن الله تعالى يقول:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَلِئِكَ مَسْكَنُهُمْ لَمْ تُمْسِكْ مِنْ
 بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (٥٨)
 أي: سنهلكهم؛ لعنادهم وظلمهم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ قبلهم ﴿مِنْ﴾ أهل ﴿قَرْيَةٍ﴾

بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴿ طغت فلم تشكر نعم الله عليها، وتحسُّ فيها، وتؤمن بسببها. وهذه ﴿ مَسْكِنُهُمْ ﴾ التي يمرون عليها، والتي يكتشفها علماء الآثار كل حين ﴿ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وليس لها وارث ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ لها. ألا يتعظون فيؤمنون...؟ على أية حال:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾

يعني: في أي زمان لم يهلك ربنا أحدًا إلا وقد أرسل رسولًا يتلو آياتنا، ويبلغ رسالتنا قبل هذا الإهلاك، كذلك ما أهلكنا أحدًا إلا وهو ممن يستحقون العذاب. وهذا عذر وإِ آخر في عدم إيمانهم، والردُّ عليه، يقول تعالت قدرته:

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

يعني: لا ينبغي أن يكون ﴿ مَتَّعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾ الفانية، صارفًا لكم عن الإيمان وطاعة الله، أو عن الالتزام بشرع الله؛ حيث إن ﴿ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ من هذا ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ منه. ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ذلك..؟

أيضًا ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ ﴾ نحن ﴿ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ إذا آمن، وأطاع الله، والتزم بشرعه ﴿ فَهُوَ لَاقِيهِ ﴾ و واجده قطعًا، ﴿ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ﴾ لفترة قصيرة، وهو غير مؤمن...؟

﴿ ثُمَّ هُوَ ﴾ فوق ذلك ﴿ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ إلى جهنم؟ إنهما أبدًا لا يستويان.

بعد الرد على أقوال الكافرين والعصاة الفارغة، ينتقل الحديث إلى بعض مشاهد يوم القيامة، إذ يقول الواحد الأحد:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (١٢)

هذا هو المشهد الأول، وفيه بيان لبعض ما يحدث مع الكفار يوم القيامة.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ المولى ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَزْعُمُونَ﴾ أنهم شركائي؟

وفي هذا المشهد ينطقون، ويحكي العزيز العليم جوابهم بقوله عز وجل:

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ (١٣)

يعني: ينطق الدعاة إلى الكفر، من شياطين الإنس والجن، وهم ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليهم العذاب، فيقولون يا: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ من الكفار ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ﴾ باختبارهم ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ باختيارنا، ولا إلزام لنا عليهم، ولا إكراه منا لهم، على كفرهم.

يا ربنا: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ منهم، ومن كفرهم، فهم ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ بل كانوا يعبدون أهواءهم، وشهواتهم.

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ (١٤)

أي: ﴿وَقِيلَ﴾ لجميع المشركين، حينئذ ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الآن لينقذوكم من العذاب.

﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ ونادوهم.. ماذا حدث؟

﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لأنهم لا يجيبون، ولا يستطيعون.

﴿وَرَأَوُا﴾ أي: ورأى المشركون ﴿الْعَذَابَ﴾ أي: ونزل بهم العذاب.

يقول تعالى: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ في الدنيا؛ لما حدث لهم ذلك في الآخرة. وكأنها دعوة إلى مراجعة النفس من الكافرين، والعصاة الضالين. ثم يكون المشهد الثاني من مشاهد يوم القيامة، يقول العليم الحكيم:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦٥)
أي: ﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ المولى ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم: ﴿مَاذَا﴾ كان جوابكم الذي ﴿أَجَبْتُمْ﴾ به ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ حينما دعوكم إلى الإيمان..؟
وفي هذا المشهد يحاولون النطق، لكن لا يستطيعون، والسبب..!! يقوله المولى سبحانه وتعالى:

﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٦٦)
﴿فَعَمِيَّتْ﴾ فخفيت ﴿عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ في كل شيء إنهم يفكرون، ويفكرون، حتى ينطقوا ويجيبون، ولكنهم لا يصلون إلى معرفة شيء، لا عن الرسل ولا عن بلاغهم لهم، ولا عن جوابهم هم، وهذا الحال في جميعهم.
ولهذا ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضًا عن جواب هذا السؤال. وهذا الموقف لمن أصر على الكفر، ومات عليه.

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ (٦٧)
يعني: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾ أي: رجع عن كفره، ﴿وَآمَنَ﴾ بالله، واتبع شرعه، وأطاع رسوله ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ يسعد به العباد، ويصلح به البلاد، ويرضى به الله: ﴿فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ الناجحين في الدنيا، الفائزين في الآخرة.
وعلى كل حال فمرد الأمر كله إلى الله..

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٨)
نعم، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ كما يشاء، فهو سبحانه المتفرد بعملية الخلق

والإيجاد، ﴿و﴾ هو كذلك ﴿يَخْتَارُ﴾ ما يشاء لمن يشاء، حسب ما يناسبه في علم الله عز وجل.

﴿مَا كَانَ لَهُمْ﴾ أي: البشر جميعاً ﴿الْخَيْرَةُ﴾ يعني الاختيار؛ بل عليهم التسليم المطلق لله، والتوكل الكامل عليه.

﴿سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ معه من آلهة، لا تملك شيئاً من ذلك، ولا من غيره.

هذا.. ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿٦٩﴾

أي: ﴿وَرَبُّكَ﴾ سبحانه ﴿يَعْلَمُ﴾ وحده ﴿مَا تُكِنُّ﴾ أي: ما تخفي ﴿صُدُورُهُمْ﴾ من الإيمان، أو الكفر، أو الحق على الإسلام وأهله ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وسيحاسبهم على هذا وذاك.

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٧٠﴾

يعني: ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ سبحانه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود سواه، كما لا رب ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] إلا هو، كما لا يعلم ﴿مَا تُكِنُّ﴾ [القصص: ٦٩] صدور عباده جميعاً، سواه.

لذلك: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ أي: واجب على كل العباد.

﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ أي: له التشريع، والتحليل والتحريم وحده؛ لأنه الخالق وحده.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ جميعاً، فيجازي كل واحد بما يستحق من الجزاء.

ثم يدلل الله عز وجل على هذه الوحداية، فيقول:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّتِيلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ ﴿٧١﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ويا كل داعٍ إلى الله في كل زمان ومكان، لأهل الدنيا كلها ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّتِيلَ سَرْمَدًا﴾ دائماً بظلمته

﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ تبصرون به..؟ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ فتعقلون، فتؤمنون..؟
ثم يقول أيضًا..

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ
إِلَّا غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢)
يعني: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ هذه النعمة، فتعقلون، فتؤمنون..؟

ثم بين وجه إنعامه في جعل الليل والنهار، حيث يقول المولى عز وجل:
﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ﴾ (٧٣)

أي: أن الله عز وجل ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ لهذه الحكم:

- أولاً: رحمة منه بكم، وإنعاماً عليكم.
ثانياً: ﴿لِتَسْكُنُوا﴾ في الليل من متاعب عمل النهار.
ثالثاً: ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ في النهار بالسعي والعمل، من فضل الله تعالى، ورزقه.
رابعاً: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ذلك، فتثابون.

أليس الله بعد ذلك هو الواحد الأحد، المتفرد بالخلق، الذي له ما يشاء ويختار..!!!
بلى.. وألف بلى.

ثم يكون المشهد الثالث من مشاهد يوم القيامة، يقول الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٧٤)
يعني: ﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ المولى ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ
الَّذِينَ كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَزْعُمُونَ﴾ أنهم شركائي؟

وفي هذا المشهد لا ينطق الكافرون كما في المشهد الأول، ولا يحاولون كما في
المشهد الثاني، بل لا ينطقون تماماً، لذلك يقول العزيز الحكيم:

﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ
وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٧٥)

أي: ﴿و﴾ لأنهم لا ينطقون جميعًا في هذه الحالة ﴿نَزَعْنَا﴾ استخرجنا ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ واحدًا منهم، يكون ﴿شَهِيدًا﴾ عليهم، يتكلم بدلًا عنهم. ﴿فَقُلْنَا﴾ لهؤلاء المنتزعين ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ دليلكم على شركائكم الذين كنتم تعبدونهم في الدنيا ﴿فَعَلِمُوا﴾ حينئذ ﴿أَنَّ﴾ التوحيد ﴿الْحَقُّ لِلَّهِ﴾ والعبادة الحق لله، لا لغيره، لذلك فلم ينطقوا، بدورهم أيضًا. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وغاب عنهم كما عميت الأنبياء على جموعهم ﴿مَّا كَانُوا يَفْرَوْنَ﴾ كذبًا من الشركاء.

هذا، وتبدأ آيات السورة الكريمة في ذكر قصة قارون، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَاتَّبَعَ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُقْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

يخبر ربنا عز وجل عن قارون بثلاثة أشياء:

الأول: أنه ﴿كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ يعني كان من بني إسرائيل.
 الثاني: أنه ﴿بَغَى عَلَيْهِمْ﴾ أي: على قومه، وظلمهم، واستخف بهم، ولم يرع فيهم حق القرابة؛ بسبب غناه، وكثرة ماله.
 الثالث: أنه كان من الأغنياء جدًا ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ أي: الأموال ﴿مَّا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ التي تفتح بها خزائن هذه الكنوز ﴿لَتَنُوءُ﴾ تثقل ﴿بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ بالجماعة الأقوياء.
 ﴿إِذْ قَالَ لَهُ﴾ الصالحون من ﴿قَوْمِهِ﴾ وهم يعظونه: خمسة وصايا. وهي كما يلي:

الوصية الأولى: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ بالدنيا وزينتها، فرحًا يؤدي بك إلى البطر والطغيان؛

حيث: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ الذين أحبوا الدنيا واطمأنوا إليها، ونسوا الآخرة، ولم يستعدوا لها.

الوصية الثانية: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾ من الغنى والكنوز، ثواب ﴿الدَّارِ الْآخِرَةِ﴾ باستعمال ما وهبك الله في وجوه التقرب إليه.

الوصية الثالثة: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ في المباحات؛ استمتع بها على الوجه الذي يوافق شرع الله، بلا تقتير ولا إسراف.

الوصية الرابعة: ﴿وَأَحْسِنْ﴾ إلى الخلق بحسن المعاملة، وإلى الخالق بحسن الطاعة ﴿كَمَّا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

الوصية الخامسة: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالظلم، والصد عن سبيله؛ حيث: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ الذين يؤذون العباد، ويخربون البلاد.

والله إنها لوصايا غالية، فهل استمع إليها قارون، وعمل بها..؟ نعم استمع إليها ولكنه:

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن قُرُونٍ مِّنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٧٨)

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم: استريحوا من وصاياكم، فإني لا أحتاج إليها، إذ لا فضل لأحد في هذا المال، ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ واكتسبته ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أي: بمجهودي، وذكائي، وعلمي.

وهذا منه قول فاسد، وفهم باطل، ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ﴾ القوي القادر ﴿قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن قُرُونٍ﴾ السابقة ﴿مِّنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ في بدنه ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ في ماله؛ وذلك لعدم شكرهم لله، وردهم الفضل في ذلك إليه.

وبالتالي، فإننا قادرون على إهلاك هذا المغرور المجرم.

﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ﴾ وعللها وسببها ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ بل يؤخذون أخذ عزيز

مقتدر.

وبعد أن قال لهم قارون هذا الكلام، يقول الله تعالى عنه:

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾
يعني: ﴿فَخَرَجَ﴾ ذات يوم ﴿عَلَى قَوْمِهِ فِي﴾ كامل ﴿زِينَتِهِ﴾.

ولما رآه الناس على تلك الحال، من روعة المنظر وبهاء الزينة انقسموا فريقين:

الفريق الأول: وهم الذين يريدون الحياة الدنيا، وهؤلاء قالوا: ﴿يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ من هذه الزينة، وتلك الأموال.

الفريق الثاني: وهم العلماء وأهل الدين، وهؤلاء لم يبهرهم هذا المنظر، ولم تفتنهم هذه الزينة؛ ولذلك قالوا للذين بهروا ممن يريدون الحياة الدنيا: ﴿وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ﴾ بالله ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾
يرضي الله، ويصلح البلاد، ويسعد العباد.

وقولهم هذا يتوافق مع ما في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾» [السجدة: ١٧].

ثم أكمل هذا الفريق كلامه قائلاً: ﴿وَلَا يُلْقَاهَا﴾ أي: الجنة، التي هي ثواب الإيمان والعمل الصالح ﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ على عمل الطاعات، والبعد عن المعاصي، ولم يفتنوا بزينة الحياة الدنيا، ورضوا فيها بما قسم الله لهم.

هذا، ولمَّا زاد بغيه وطغيانه، حل عقابه؛ يقول الجبار المنتقم:

﴿فَنَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾

يعني: ﴿فَنَسَفْنَا بِهِ﴾ أي: بقارون ﴿وَبِدَارِهِ﴾ معه ﴿الْأَرْضَ﴾ وذلك عقوبة له على بغيه.

ولمَّا فعلنا ذلك، ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ﴾ جماعة، ممن حوله من المنتفعين به،

أو من غيرهم ﴿يَصْرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: يمنعونه أو يمنعون عنه عذاب الله. ﴿وَمَا كَانَ﴾ هو ﴿مِنَ الْمُتَصَرِّينَ﴾ لنفسه؛ بما عنده من علم مزعوم، أو قوة موهومة.

وهلك قارون... وضاعت زينتته، ولم ينفعه ماله...!!

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَاثُرُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَكَانَهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٢)

وأفاق الذين يريدون الحياة الدنيا...!! وهم ﴿الَّذِينَ تَمَنَّوْا﴾ أن يكونوا ﴿مَكَانَهُ﴾ أي: مثله ﴿بِالْأَمْسِ﴾ من هول صدمة خسف قارون!! وعرفوا أن الدنيا لا تدوم، وأنها إن حلت أو حلت، وإن كست أو كست، وإن بسطت قبضت، وإن أعطت أخذت، وأن زينتها زاهية، لذلك أصبحوا ﴿يَقُولُونَ﴾ ندماً ﴿وَي﴾ لإظهار هذا الندم ثم يقولون: ﴿كَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ يوسع ﴿لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بقدرته ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيقه على من يشاء من عباده بقدرته.

ثم قالوا: ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بعفوه عن أماناتنا الخاطئة، ونظرتنا الفاسدة للمال، ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ الأرض، كما خسف بقارون.

﴿وَيَكَانَهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ﴾ مهما أوتوا من زينة الحياة الدنيا، وكثرة أموالها، وقوة البغي فيها.

وبعد أن قص الله علينا قصة قارون، وفتح عيوننا على ما فيها من دروس وعبر: يعقب عليها ببيان سنة من سننه تعالى، حيث يقول:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣) ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٤)

يعني: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ التي عرفتكم أوصافها ﴿بَجَعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ واستكباراً على أهلها ﴿وَلَا فُسَادًا﴾ فيها، وذلك لا يكون منهم إلا بعدم إرادة المعاصي، وتركها بالتالي، وفعل الطاعات، والتعلق الدائم بمرضاة الله.

﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ الحسنة عندنا ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾. ولذلك ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ يوم القيامة ﴿فَلَهُ﴾ منا ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ التي عملها في الدنيا، من الكفر والمعاصي.. ﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من العقاب ﴿إِلَّا﴾ مثل ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

هذا، ولما فصل ربنا في أحوال الآخرة، أيضاً فصل في بعض أحوال النبي ﷺ إذ قال:

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٨٥)

أي: ﴿إِنَّ﴾ الله ﴿الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ﴾ أحكام وتعاليم ﴿الْقُرْآنَ﴾ وخصك به ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ﴾ مكة في ﴿مَعَادٍ﴾ حدده هو سبحانه، ويعلمه هو سبحانه، تدخلها فيه منتصراً، بعد أن أخرجوك منها وحيداً.

وهذه بشرى لمحمد ﷺ، ودليل على نبوته، حيث أخبر الغيب وحققه الله له، وفق ما أخبر به، لذلك قال له ﴿قُلْ﴾ للناس جميعاً ﴿رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ﴾ وهو أنا، ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهم المشركون.

وفي نهاية السورة: يذكر الله محمداً ﷺ ببعض نعمه عليه، ويطلبه بمجموعة أوامر ونواهٍ على النحو التالي:

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ (٨٦) ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٨٧) ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٨)

يعني: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو﴾ أو تتوقع أو تظن ﴿أَنْ يُلْقَى﴾ وينزل ﴿إِلَيْكَ﴾ من ربك ﴿أَلَيْكَ تَدْبُ﴾ أي: القرآن، ولكن ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ بك وبأمتك، وبالبشرية كلها: نزل هذا القرآن، لذلك عليك بما يلي:

أولاً: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ مساعداً، ولا مناصراً ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ الذين يعادونك، ويبغضون دينك، بل فارقههم وخالفهم.

ثانياً: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ﴾ ويمنعك ﴿عَنْ﴾ تبليغ ﴿ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ وأحكامه والعمل بها ﴿بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أحد.

ثالثاً: ﴿وَادْعُ إِلَى﴾ توحيد ﴿رَبِّكَ﴾ وطاعته، وعبادته.

رابعاً: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ انتساباً، أو مشاركة لهم في عمل، أو اعتقاد.

خامساً: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ليعبد حيث لا تليق العبادة إلا له، إذ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ فإن ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ سبحانه، الحي القيوم، تموت

الخلائق، ولا يموت.

﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ والأمر، والنهي، والتشريع، والتصرف، في الدنيا والآخرة.

﴿وَالِيهِ تَرْجَعُونَ﴾ أيها الناس كلكم، يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم، إن خيراً

فخيراً، وإن شراً فشر.

